ملخص البحث: في استنباتِ ما ليس أكيداً: قرن من السوسيولوجيا في الهند

لقد استُنبتت السوسيولوجيا كحقلٍ أكاديمي في الهند مع الاستعمار البريطاني، وتأسس أول قسم كامل لعلم الاجتماع في جامعة بومباي (المعروفة حاليا بمومباي) سنة 1919 بفضل عالم الاجتماع الإسكوتلندي باتريك غيدنز (Patrick Geddes). بمرور مئة سنة من هذا التاريخ أضحى علم الاجتماع مُمأسسًا أكثر في التعليم العالي الهندي وتوسع بشكل أكبر، وجرى تدريسه على نطاق واسع في الجامعات والكليات، كما أجريت دراسات سوسيولوجية كثيرة في الجامعات والمعاهد، وهناك جهاز مهني هام يحتضن السوسيولوجيين – المجتمع السوسيولوجي الهندي (تأسس سنة 1952) – بعضويات مدى الحياة جاوزت أربعة آلاف عضوية.

ومع كل هذا هناك اتجاه تشكّكي بين هؤلاء الذين يمارسون علم الاجتماع في الهند، ونادرا ما نرى أي جدوى من التقدم والارتقاء الوظيفي، ويقابل ذلك بالتوجس الحاصل بين صناع القرار وعامة الجمهور إزاء الاستخدامات العملية لعلم الاجتماع. وليس مدعاة للدهشة، وحتى مع ارتفاع حجم الملتحقين بالدراسات العليا هناك تراجع في أعداد طلاب علم الاجتماع، وحتى من بين هؤلاء الذين يشتغلون بعلم الاجتماع نجد أنه لا يحظى بأفضلية لديهم. ويمثل في

هذا الإطار تراجع جودة منتوج التخصص على الصعيد البشري والمعرفي مصدر قلق متزايد في الأكاديميا الهندية.

إن الأزمة التي يواجهها علم الاجتماع في الهند اليوم لها ارتباط وثيق بكونه "استنباتًا غير موثوق"، حيث تأثر بشدة المقرر الدراسي لعلم الاجتماع خلال فترة الاستعمارية بالأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية نظرا لتكوين الرواد الأوائل وبعد الاستقلال تأثر بشدة بالسوسيولوجيا الأمريكية بسبب التزايد المستمر لأعداد السوسيولوجيين المكونين في أمريكا. ولا ينطبق هذا فقط على مقرر السوسيولوجيا ولكن أيضًا على الأجندات البحثية التي تحددها السوسيولوجيا الغربية (خصوصا الأمريكية). إن السوسيولوجين في الهند يبحثون عن إقرار السوسيولوجيا الغربية بمنجزاتهم. ومن ثم إذا كان استنبات السوسيولوجيا الغربية في الهند غير أكيد، فإن تطورها وزخمها يظل يُقلد توجهات السوسيولوجيا الغربية.

على مدى عقود قدمت مقترحات عديدة وبعضها جرى حتى تنفيذه، لأجل التعاطي مع سؤال التوافق بين علم الاجتماع وموضوعه الوجودي: الماركسولوجيا والمقاربة الماركسية، دراسات التابع، السوسيولوجيا التكاملية، العلم الاجتماعي الموحد، الأهلنة، السوسيولوجيا السياقية. دورية "مساهمات في السوسيولوجيا الهندية" تبنت نقاشات مستمرة حول "علم اجتماع للهند" (Sociology for India)، غير أن علم الاجتماع في الهند لا يزال يمثل صورة مرآة (مشوهة كما هو حال أي مرآة) لنظيره الأول في الغرب. عادات ما سماه سيد حسين العطاس

"العقل الأسير" (Captive Mind) تَظهر ميتة بشدة؛ وعلم الاجتماع في الهند يظل علم اجتماعي محاكٍ بعد مئة سنة من وجوده الرسمي.

تعالج هذه الورقة مشكلات وآفاق أهلنة علم الاجتماع في الهند، وهي مقسمة إلى أربعة أجزاء: الأول يقدم إشكالية علم الاجتماع في سياق القوى الكونية والتوطينية المقابلة، الجزء الثاني يناقش الأزمة التي تواجه علم الاجتماع في الهند كما عُين في ظل الحكم الاستعماري واتسع كعلم اجتماعيّ محاكٍ ابان الاستقلال، والجزء الثالث يحلل مسألة التوافق الأنطولوجي والابستمولوجي للتدريس والبحث في الموضوع، والجزء الرابع يفحص البدائل المقترحة للتعاطي مع هذه المسائل، أما الجزء الأخير فيختم بالتفكير في آفاق أهلنة علم الاجتماع في الهند.